الرداء الأبيض

للقصصي الانجليزي ستاس أوموني

بقلم الأديب محمود المرصفي

عندما تنتهي بهم الحياة ويبعثهم الموت إلى عالم البقاء والخلود إذذاك تقوم ذكراهم من بين السطور التي خطوها بأناملهم فتذكر الأجيال المتعاقبة من جنسهم بالأثر الطيب الذي خلفوه والتراث الجميل الذي تركوه لهم من بعدهم عسى أن يكون لحياتهم نبراساً هادياً ومشكاة لا يخفت لها نور ومنبع لا ينضب له معين ...! ها هو ذا التذكار الخالد الذي تركه الأديب من بعده؛ وهاهو ذا الأثر الناطق الذي خلفه المهاري من فنه؛ وهاهي ذي الأفكار الصامتة على الحجر الذي صاغها النحات من قريحته لتشهد الأجيال بعلو كعبه وجمال صنعته!

ها هي ذي أعمالهم العظيمة التي لا سلطان عليها للزمن تخاطبهم قائلة: «احكموا بني جنسي على ما قمت به في سبيل خلاصكم وسعادتكم، لا شك أنكم ستنعمون بما قدمت لكم من تراث ولا شك أنكم ستقدرونه بما يستحق من التقدير ...!

ولكن وا آسفاه على ذلك الممثل الذي عاش ومات لفنه وذلك الموسيقي الذي تألم لطرب غيره ...!

لا شيء خلفوه غير هذه الذكر الفانيات التي ترقد في ثنايا ذاكرات محبيهم وأصدقائهم أيستطيع أولئك أن ينقلوا شيئاً من ذكراهم أو يخلدوا رسيساً من تراثهم ...؟!

رُبَّ قائل يقول لك «لا شك أنك طربت ليلة ما بسماع ألحان جان دي رسك أو شاهدت تمثيل ماكريدي على المسرح؟» فترى نفسك إزاء هذا القول مضطراً - مراعاة للأدب ومجاملة للموقف - إلى قبول هذا الحكم راضياً مختاراً أما إذا كان الحال غير ذلك لأنك لم تعتد سماع دي رسك أو مشاهدة ماكريدي فليس هناك أي أثر في قلبك أو أي فكرة في نفسك ..!

والواقع أن الممثل أتعس حظاً من زميله الموسيقي ...! وذلك يرجع إلى وفرة المخترعات الآلية الحديثة التي ساعدت على إخراج أشجى الألحان، وتأليف أجمل الأنغام حتى أن

تعريف

«ستاس أوموني» كاتب قصصي بارع عالج القصة القصيرة فأبدع في حبكها أيما إبداع فجاءت ممتعة لما يدور فيها من حوار شيق في صورة محادثة سهلة بسيطة على غرار ما يحدث كل يوم في حياتنا الخاصة. وتمتاز قصصه بصفات أخرى عالية — تمتاز بالمزاح الرقيق والقوة في تحليل العواطف الانسانية المتباينة والميول المختلفة المتعارضة وحدبه على هؤلاء الذين نكبوا في حياتهم من جراء الهوى وتبارح الغرام وعطفه على الانسانية المعذبة في هذه الحياة الدنيا»

وستاس أوموني فوق ذلك مصور بارع ومسرحي فذ إذ صادفت لوحاته وكثير من مسرحياته نجاحاً باهراً مما جعله في مقدمة المؤلفين المسرحيين في انجلترا

ولكنه أبدع وتفوق في فن القصة القصيرة وله مجموعة طيبة منها وقارئوه كثيرون جداً في أوربا وأمريكا. ووافته المنية في عام ١٩٢٨

النجاح في تلحينها يختلف باختلاف الآلات وإتقان صنعتها ونوع معدنها... ولكن الحال مع الممثل الفنان تختلف عن هذا وتتباين فلا تنفع الآلة، ولا الاختراع وإنما اعتماده كله ينحصر في براعة فنه وخفة حركاته وقوة تعبيره واندماج نفسه في طبيعة دوره! فمن يقول إن جوزيف جيفرسن أو هنري ارفنج اعتمدا ليلة مجدهما على آلة أو اختراع؟ وا أسفاه لقد قضيا في غير رجعة ولا ذكرى وأصبحا في عداد أبطال الأساطير والخرافات!

جالت في نفسي هذه الخواطر الحزينة على أثر زيارة صديقي الممثل السيد كولين برانكر.

قابلته لأول مرة في المكتبة الأهلية فاستهوتني هيئته الوقورة ومشيته المتزنة الجليلة.

يمتاز هذا الرجل برأس طويل جميل يتوجه شعر أبيض كالثلج. وهو رفيع القامة عريض المنكبين وكنت في ذلك الحين دائم التردد على هذه المكتبة فأجده يلتهم تلك المجلات والجرائد التي أريد قراءتها...

ابتدأت علاقتي به يوم سألته عن مجلة «استعراض السبت» فأدى هذا السؤال إلى تقديم الشكر والعرفان ثم إلى التحية بالرأس في اليوم التالي، ثم إلى تبادل الرأي في الطقس، ثم انحناءة جميلة منه إليّ ثم السؤال عن صحته من جهتي.

أثارت أخلاقه اهتمامي وراعني نبل عواطفه ورقة شعوره نحوي. وأنت إذا تحدث إليك هذا الشيخ الوقور ملك عليك حسك وشعورك، واستهواك بطرق حديثه ونبرات صوته الجهوري ومخرج ألفاظه الواضح الجميل. يحرك فيّ هذا الرجل نبل العواطف وسمو الشعور حين أراه يعطف على كل شيء ويتأثر من أتفه الأمور. فمثلاً إذا قال لك: ما أجمل الطقس اليوم...! تشعر على الأثر أن تعبيره هذا يخالف هذه التعابير السائرة الممجوجة التي يتفوه بها الناس في مختلف المناسبات وإنما هي تشبه تلك الأغنية الشجية التي ينشدها الجنود البواسل عند النصر حيث يودعونها نشوة الفرح وهزة الطرب على ما من به الله عليهم من نصر ومجد...! أو إذا قال لك: أوه لشد أسفي...! على أثر إخبارك إياه بحادث محزن قد حدث لك، فأنت تستطيع أن ترى الحادث برمته ماثلاً لك خلال عيني هذا الرجل العطوف وقد تخضلتا بالدمع السخين!...

فحزنه في هذه المناسبة يشبه حزن أجا ممنون على خيانة كايتمنسترا له

وفي ذات يوم دعاني لزيارته في بيته المتواضع على حد تعبيره هو فذهبت فوجدته يعيش وحيداً في عزلة من الناس، تقوم على خدمته امرأة عجوز راعه إخلاصها ووفاؤها له فأبقاها في خدمته سنوات عديدة... وغرف البيت تزينها تحف فنية رائعة وصور شمسية تذكارية منبثة هنا وهناك على الجدران والمناضد المستديرة الفخمة. تحققت بهذا المنظر مركزه كممثل بارع بعيد الصوت، فلو كان هذا الشيخ الجليل مصوراً لسهل عليّ أن أحكم عليه من نظرة واحدة خلال لوحاته، ولكن ماذا تقول في ممثل عجوز قد خصص فكره وحياته لاستعراض الماضي البعيد في ذاكرته وفي استرجاع الزمن الغابر السحيق في ذهنه. حقاً إنه منظر يثير الألم والحزن ويحرك في النفس كوامن الشفقة والشجن...!

وله هناك في أقصى البهو صورة رائعة ممثلة باسم مالفوليو Malvolio وله عدا هذه الصورة صور

أخرى تمثله فى شخصيات مختلفة من مسرحيات شكسبير الخالدة وفى مواضع أخرى من البهو صور لزميليه نول وهنرى آرفج وصور عديدة لمختلف الممثلين بعضهم من أعلام الفن والبعض الآخر لم أعرفهم

فهمت من سياق حديثه الممتع أن أمه كانت ممثلة فرنسية بعيدة الصوت فى عالم المسرح، وهناك على البيان تقوم مروحة فنية فى وضع جميل قد أهديت لها من الامبراطورة أوجينى Eugénie تقديراً وتشجيعاً لها . ولم يحدثنى قط عن أبيه . خرجت من عنده حاملاً أجمل الذكريات العزيزة وعولت على زيارته كل ليلة سبت من ليالى الأسبوع . ففعلت حتى توشجت بيننا علاقة وثيقة ! وما زلت أزوره إلى اليوم وفى كل مرة كان يطلعنى على مقتنياته الفنية وصوره التذكارية حتى انتهينا منها جميعاً فعمد بعد ذلك إلى القماطير وأتى لى ببقايا آثار قديمة من القماش الثمين المطرز بأسلاك الذهب الخالص وأخذ يشرح لى تاريخ كل قطعة ومناسبة إهدائها له وكيف احتفظ بها حتى اليوم يستعين بها على استرجاع الماضى البعيد كلما تاقت نفسه الصادية إلى استعراض الذكريات الحبيبة، ذكريات الأمل والشباب ! ...

وفى ذات ليلة لفت نظرى رداء صغير أبيض اللون دقيق الصنع رقيق النسيج ، ونظراً لرفع الكلفة بيننا استبحت لنفسى أن أسأله عن هذا الرداء الصغير الأبيض وهو ليس له بنات صغار حتى يقتنى مثله . لا شك أنه رداء لطفلة صغيرة . ومما استوقف نظرى أيضاً أنه كان ملفوفاً بعناية فائقة ومحفوظاً فى مكان خاص به منفرداً عن جميع القطع الأخرى ...

فأخذته بين يدى ثم أريته إياه وقلت له : ما هذا سيدى الأستاذ ؟!

فنظر إلى الرداء نظرة مؤثرة ممتعضة كأنى حركت فى نفسه ذكريات مريرة لا قبل له بها وفاجأته بحادث حطم قلبه وهد من كيانه . فلما لاحظت عليه هذا التأثر أشفقت عليه وأخذت أكفكف من دمعه وأهدىء من نفسه وقلت له : « إنى آسف أيها الزميل ! لاشك أن هناك قصة مؤلمة لهذا الرداء، وكان ينبغى علىّ ألا أثير كوامن ذكرياته فى نفسك »

قلت ذلك وانتظرت رده علىّ ، فاتجه نحوى وأخذ يربت على كتفى برقة ويقول لى متمتما : « كلا . . . كلا ... لا تزعج نفسك هكذا ...! »

حسناً فعلت ... سأخبرك بقصته ولكن فى غير هذه الليلة ... قال هذا وهم قائماً وطفق يمشى ذهاباً وجيئة فى عرض الغرفة، وفى صمت شامل وتفكير عميق ، وبعد قليل وقف فجأة أمامى ووضع يده العارية الأشاجع على كتفى وخاطبنى قائلاً :

— إيت إلىّ غداً مع زوجتك لنتناول العشاء سوياً ... وإذ ذاك تكون مناسبة سعيدة فأقص عليكما مأساة هذا الرداء الصغير الأبيض

وجدت أن زوجتى كانت مدعوة إلى ليلة راقصة فى ذات الليلة التى دعينا إليها من السيد برانكر، فلما أخبرتها بدعوته لم تتردد فى إلغاء دعوة الليلة الراقصة لتستطيع أن تذهب معى إلى هذا الشيخ الكريم .!

وقلت لها إن السيد برانكر رجل متوسط الحال وبيته متواضع خالٍ من مظاهر الترف والنعيم فلا تكلفى نفسك مشاق ارتداء ثوب السهرة الثمين ولا سيما أن الدعوة خاصة بنا لا كلفة فيها ،

ولا رسميات ولا قواعد يمكن أن نؤاخذ عليها، ولكن أقوالى كلها ذهبت أدراج الرياح، وفجأة بدت زوجتى فى حلة جميلة كأنها ستذهب إلى حفلة ملكية ساهرة فلم أحتج ولم أعارض — لأن التجارب قد علمتنى أن لا فائدة من الاحتجاج أو المعارضة إذ تجر إلى شقاق وآلام لا موجب لها . فارتديت ملابسى العادية فبديت بجانبها شاذاً منتقداً من كل من يرانا من الأصدقاء أو المعارف

وشىء آخر زاد من إحراجى ودهشتى معا . ذلك أننا عند ما ذهبنا إلى دعوة هذا الشيخ وجدته مرتدياً هو الآخر لباس السهرة الرسمى

جلسنا على هذا الحال نحن الثلاثة حول مائدة كل أدواتها كانت من الفضة الثمينة والبلور الشفاف الجميل، وكان يقوم على خدمتنا المرأة العجوز

على أن ثيابى وهيئتى فى هذه الليلة مما أثر فى نفسى أبلغ الأثر وأعمقه حتى نغصت علىّ جلسة نادرة ممتعة ووقتاً سعيداً مع هذا الرجل إذ كنت أشعر بأنى غريب عنهما وأنى لا يجوز لى أن أشترك معهما فى الحديث ...

دلنى مظهر الوليمة ومبلغ نجاحها على لون حياة هذا الرجل ... لاشك أنها من هذا النوع الرفيع الذى يحياه قلة الناس من الهيئة الأرستقراطية ...

وبعد الطعام دعانا مضيفنا إلى الجلوس حول الموقد حيث نصطلى بدفئه اللذيذ فى مثل هذه الأيام من الشتاء القارص ، وإذ نحن كذلك حول الموقد خاطبنا قائلاً : « ليدعنى أولاً سيدتى وسيدى أن أقدم لها قليلاً من هذا الشراب الممتاز الذى أهداه لى صديق مقدس الذكرى عندى ... » قال هذا ودلائل التأثر بادية على وجهه فهزت من نفسه ...

وقدم لى كأساً من المشروب العزيز واعتذرت زوجتى عن قبوله ولكنه ألح عليها إلحاحاً شديداً حتى قبلته أخيراً فنم بهذا الانسجام ، ثم استوى على مقعده شارد الفكر مضطرب الجوانح . وبعد برهة من الصمت الرهيب قالت زوجتى : « الآن يا سيدى أريد أن تريني الرداء الأبيض الصغير » فردّ عليها بانحناءة كلها احترام ورقة ثم اتجه نحو البهو وجاء بالرداء ثم نشره، وهو واجم لا ينبس ببنت شفة، على مسند المقعد فقلبنا فيه النظر هنيهة قصيرة ثم قالت أليس: « ما أجمله من رداء وأروعه من ذوق ... »

فرأيناه مرة واحدة يخفى وجهه بين يديه وأخذ ينتحب نحيب الأطفال فصمتنا أنا وأليس إزاء هذا المشهد المؤثر الجليل ... يا لله ... ! ما أضعف القلب البشرى ... ! يا إلهى ... لم أودعت هذا القلب كل هذه الرقة . . . ؟ !

لبث هذا المنظر الرهيب زهاء الدقيقة ثم رأينا الرجل يثوب إلى رشده ويعاوده الكلام ثم استطرد فى حديثه قائلاً : « ترجع يا أولادى حوادث هذه القصة إلى زمن ليس بالقصير ... حدثت أيام الشباب الغابر فى جيل غير جيلكم وزمن غير زمانكم

أظنكما تذكران فرقة الممثل الذائع الصيت « شارل كارسيد » التى كانت تجوب فى الأقاليم إذ ذاك والتى كان يستقبلها الجمهور الراقى الحساس بكل حماس وتشجيع . . . وكيف لا . . . وهو حين كان يشاهد رواياتها تمثل على مسرحها يلذ له أن يرى نفسه فى كل حركاته وسكناته . . . فى كل عواطفه ونزعاته . . . يرى فيها ميوله وآراءه وآماله وأتراحه وأحزانه وأفراحه . . . آه . . . ! لقد ذهبت هذه

إزاء هذا الإخلاص البرىء وهذا الوفاء التبادل النبيل قررأينا أن نترك الأمر يلعب به الحظ ويداعبه القدر ...! فعمدنا إلى لعب الورق ولكن بعد دور أو دورين تبين أن كلينا كان يلعب فى غير اهتمام ليدع الآخر يربح ليفسح له الطريق

وبعد قليل عزمنا على لعب الشطرنج، وفى بضع دقائق رأينا أن اللعب كان صوريًا لأن كلاً منا كان يحاول أن يُغلب ...

فضقت بذلك ذرعاً وقلت لزميلى : « يجب علينا أن نخضع لحكم القدر النزيه ، وهذا يتوفر فى هذه الزهرة القائمة فى هذا الأصيص . فإذا كانت ورقاتها زوجية فهى لك، وإذا كانت فردية فهى لى » فقبل هذا الحكم . فتناولت الزهرة الجميلة بين يدى وأخذت أنزع ورقاتها ورقة ورقة وأنا شارد اللب مضطرب الجوانح، وطفقت أعدها أمامه وهو شاخص البصر موزع الفكر حتى بلغ عددها الثامنة والخمسين. وعند ما رأى آخر ورقة تكمل العدد الزوجى سقط على كرسيه مغشياً عليه وعلت وجهه صفرة الموت، فذعرت ثم نهضت وقدمت له كأساً من شراب منعش فاستفاق وأخذ يثوب إلى رشده شيئاً فشيئاً

كان الوقت قد جاوز الفجر بقليل والناس نيام والحركة واقفة فى كل مكان . ثم خرجنا إلى الشارع فإذا بزميلى منبسط الأسارير طافح البشر لهذه النتيجة

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح هذا اليوم كنت بين يدى محبوبتى صوفى أسكب لها كل ما فى قلبى من عواطف شاردة وحب صادق وإحساس نبيل ظل محبوساً فى صدرى زهاء الشهرين . . .

وبعد ما انتهيت من كلامى شعرت بشىء من الراحة والسكينة لا أستطيع وصفهما . . . ! إذ أن هناك أشياء مقدسة عزيزة على النفس رهيبة على القلب لا يستطيع الإنسان أن يعيد تلاوتها حتى ولو إلى المقربين من أصدقائه ومحبيه !

لا أخفى عليكم حقيقة شعورها نحوى . . . إذ كان شعوراً عاديا لا لوعة فيه ولا حب ...!

وأخيراً رفضت طلبى معتذرة فى رفق وحنان آه ...! كم كانت رقيقة العاطفة رهيفة الشعور حبيبة إلى كل قلب كريمة على كل من يحيط بها من الناس

الحق أنى سمعت عند سماع رفضها حتى أظلمت الدنيا فى عينى وكدت أقتل نفسى من اليأس !

ما أعجب أمر الشباب ...! يريد أن يحظى بكل شىء فى التو واللحظة وإلا جنح إلى اليأس والقنوط .!

ومع ذلك كنت أتردد عليها الليل والنهار طوال أسبوع عسى أن أحظى بالرضا وأستولى على قلبها ولكن كانت كل مساعى فاشلة وفهمت فى النهاية أنها تشفق وتحدب علىّ ولكنها لا تحبنى ...!

عند ذلك ذهبت لزميلى أوبن وقلت له : « الآن قد آن لك أن تلعب دورك ... لقد فشلت ... فهيا ..! فلم يقبل فى بادئ الأمر ولكنى ألححت عليه حتى رضى وذهب !

جاءنى الصديق وقال لى وهو مضطرب البال : « زميلى ... أنا لا أستطيع أن أتبين عواطفها نحوى ... هى تشفق على ولكنها لا تحبنى ... ! ! فعجبنا لهذه المرأة الغامضة المغلقة القلب ..! ومع ذلك لم نيأس فعزمنا أن نصارع عواطفها فى ميدان أكثر صراحة وأوسع رحابة حتى يستولى عليها أحدنا أو نفقدها معاً ... فرحنا نطاردها أينما ذهبت وأخذنا نغشى الأبهاء التى كانت معتادة التردد عليها نحدونا عاطفة واحدة ويجمع بين قلبينا القصد الخالص الشريف والفكرة النبيلة ...!

لبثت مطاردتنا على هذا ثلاثة شهور كانت نهايتها انتصاراً وتوفيقاً إذ أحبت صوفى صديقى حباً شديداً حتى أمست شديدة التعلق به فلا تستطيع فراقه . .

وما كان أشد فرحى وأثلج صدرى ـ يشهد الله ـ عند ما كنت أرى صاحبى سعيداً رضى النفس قرير العين باسم الثغر بهذا الانتصار العظيم الذى قدرلنا ... ! وما كان أسعدنى حين يقص علىّ كلماتها العذبة ويشرح لى قبل عواطفها ، وبراءة نفسها العزيزة ... !

بعد ذلك حدث ما لم أكن أتوقعه ... قال هذا ثم استوى على مقعده ، ومر بأنامله المرتعشة خلال شعره الأبيض الناصع فى حركة كلها رقة وحنان ... ثم استطرد قائلاً : « حدث أن عماً لأوين قد مات فى استراليا ، وخلف له ثروة طائلة كان قد جمعها قبل وفاته بجهده وبخله الشديد . علم أفراد الفرقة جميعاً الثروة المفاجئة التى حطت على أوين وطرب له الجميع سوى شخص واحد ظل منزوياً فى حسرة ومنعزلاً فى ألم ... ! » ثم حدق بنظره نحو زوجتى وزفر زفرة طويلة ثم قال : « لقد عشت طويلاً فى هذه الحياة وذقت حلوها ومرها ، ولكن واأسفاه لم أزل لا أستطيع تعرف ميول المرأة أو استكشاف أسرار قلبها الغامض المغلق ... !

هى أشبه بهذا الصندوق السحرى الذى لا نعرف ماذا يضم فى داخله ... ! إن قلبها لا حد له ولم يزل الرجل عاجزاً عن تحديده أو تعريفه ... !

قد تدهشين إذا علمت أن صوفى رفضت الزواج من أوين ... لا لسبب آخر غير ثروته المفاجئة .. ! هى لا تحبه إلا فقيراً مثلها يعمل بجانبها فى فرقتها ! هى لن تتزوجه الآن وهو على هذا الحال من الثراء لأن الناس سيعتقدون أنها تزوجته لما له فحسب . . وإن أنس لا أنس هذه الآلام التى أقضت مضجعى طوال أسبوع من الشتاء ، كنت خلاله موزع الإحساس بين إقناع « صوفى » وبين حبى لزميلى « أوين » ولشد ما تألمت له ورثيت لحاله حين كان يراها تصر كل الإصرار على رأيها رافضة كل مسعى

لقد صرعت الثروة أوين فأدمن الشراب وأسرف فى لعب الميسر ، وسلك طريقاً شائكاً شائكاً حقبة قصيرة من حياته الطاهرة من جراء هذه الطعنة المفاجئة !

خشيتُ على شبابه أن يذوى مبكراً وهو فى ريعانه فلم أجد علاجاً سوى أن أبحث له عن امرأة أخرى تتزوجه وهى لا شك تقبله لجاهه وثروته ، فوفقت أخيراً إلى فتاة جميلة نبيلة القلب كريمة النفس تدعى أنا بللا . فتزوجا ووفقا فى حياتهما الزوجية توفيقاً كبيراً ، وبعد عامين من قرانهما رزقا طفلة قرا بها عيناً ... ! لقد خبرت قلب المرأة وحللت أخلاقها فى هذه الفترة فرأيت منها العجب . رأيت صوفى التى رفضت الزواج من أوين لأنه كان غنياً والتى كانت ترتعد فرائصها حين ترى أنا بللا زوجته ، رأيتها تتحول بكل حبها وإعزازها إلى الطفلة ابنتها فأفاضت عليها من حنانها وعطفها كل قطرة من قلبها ... انقطع أوين عن العمل فى الفرقة وتفرغ لحياته الزوجية . ورجعنا أنا وصوفى إلى العمل فى المسرح ، فحاولت أن أوقعها فى شراكى هذه المرة إذ أصبح الطريق خالياً لى فلم أوفق مطلقاً ـ كنت عبداً طول عشر سنوات كانت هى خلالها أسيرة

لحب طفلة صديق أوبن ... ما أعجب هذا القلب ! كنت أراها تنفق كل دانق على الهدايا والدمى الصغيرة والملابس الرشيقة لتقدمها إلى الطفلة ... قد يبدو ذلك غريباً ولكن الحقيقة كانت كذلك!»

ولأول مرة طيلة هذا الحديث قالت زوجتى : « ليس فى الأمر غرابة ... ! » فشاعت على وجه برنكر بسمة تنم على الدهاء والرقة معاً ... ! ثم قال:

« كنت أحاول أن ألفتها إلى حبي بشتى الوسائل ولكنها كانت منصرفة عنى بكليتها إلى شؤون الطفلة أجل ... ! إن الرجل فى كل علاقاته مع المرأة يجد نفسه المغلوب على أمره دائماً ! تطوى المرأة فى نفسها تلك الإحساسات الغامضة التى تعيها فى غير واسطة على فهم حقيقة الرجل وصدق عاطفته ودخيلة نفسه وتوازع قلبه : منحتها الطبيعة هذا الشعور نظراً لضعفها ونظراً لقوته !

تعرفت صوفى بأنا بلا وتوثقت بينهما عرى المودة فأصبحتا صديقتين مخلصتين، وأخذت صوفى — كلما قمنا برحلة خارج المدينة — تبعث لها الرسالة تلو الرسالة مودعة إياها كل عواطفها وأشواقها

مرت الأيام سراعاً ونحن على هذا الحال من العلاقة حتى حدثت الفجيعة الكبرى : لقد قضى أوبن بعد عامين من زواجه إذ قام ذات ليلة — على أثر توعك خفيف قد شعر به — ليتناول بعض المنعشات فأخذ وهو فى حمى المرض بعض الزجاجات التى تحوى سائل الأدمونيا الخاص بالتصوير إذ كانت زوجته مولعة بهذه الهواية — فانطلق مذعوراً إلى الطريق العام وهو بملابس النوم ولكنه لفظ النفس الأخير بين ذراعى أحد الشرطة الذى استغاث به !

ارتسمت صورة هذه الفجيعة على محيا هذا الشيخ الوقور وبدا فى يأس شديد حتى سحت مدامعه ومدامعنا رثاء لهذا الصديق العزيز !

وبعد قليل هدأ وكف عن البكاء ثم قال فى لوعة وتأثر :

بهذا الحادث المحزن طويت أسعد أيامى وأجمل أوقاتى فى كل أدوار حياتى !

كما زاد هذا الحادث من حب صوفى للطفلة « لوسى » حتى أصبحت لا تطيق لها فراقاً ! كانت لوسى تعيش مع أمها فى خفض من العيش متقلبة فى أعطاف النعيم إذ ورثت عن أبيها تلك الثروة الطائلة المشؤومة

درجت الطفلة وشبت فى هذا الجو الخانق جو اللهو والنعومة والترف فخشيت صوفى عليها من هذا الوسط وحاولت من إصلاحها وهدايتها إلى سبيل الفضيلة وعملت كل ما فى استطاعتها لتهذيبها وتثقيفها لتجعلها صورة أبيها وقطعة من حبيبها الفاضل الكريم ، ولكنها فشلت فى كل محاولاتها إذ كان فى الطفلة استعداد لتكون على غرار أمها فى تقديس حياة اللهو والمجون . شبت الطفلة غريرة فاسدة الخلق مدللة ناعمة تقضى كل أوقاتها فى اختيار ملابسها وتجميل وجهها وتصفيف شعرها على كل الأنماط . تحاول وهى فى هذه السن المبكرة البريئة أن تعجب الرجال بحركاتها وخفتها ورعونتها ورشاقتها فدرجت وفى نفسها هذه الميول البتسرة والشهوات الباطلة والنزعات السافلة لما يحيط بها من إعجاب مزيف من الرجال وتدلل مصطنع من مغرريها !

حقا لقد كانت تبهر الأنظار بجمالها الذى ورثته عن أبيها وتسبى القلوب بألحاظها الفتانة وتسحر

الرجال بلباقتها فى الحديث وإتقانها القراشق بالنكات والفكاهة !

فكروا يا أولادى فى طفلة لم تتجاوز العاشرة من عمرها ولا هم لها إلا العناية بالثياب والتجمل والمرح الماجن واللهو الآثم !

كانت هذه الطفلة الصغيرة تحب «العمة سوفى» لأنها كانت تجزل لها الهدايا والملابس فى كل المناسبات . ولدى هنا فى هذا الصوان عدد كبير من الأردية والمعاطف الجميلة كانت سوفى طيب الله ثراها قد غزلتها وحاكتها خاصة للطفلة وردت إلى بطريق ليس المقام مناسباً لذكره » . ثم قال مستطرداً : « ما أبلغ الأثر الذى تلعبه الأزياء والملابس فى حياتنا اليومية ... لقد أصاب كارليل جادة الصواب حين ردد هذا القول الحكيم الذى ينطوى على معان كبيرة !

والواقع أن سوفى كانت ماهرة جدا فى حياكة الملابس وأشغال الإبرة؟ قد برزت أقرانها فى هذا الفن الجميل فأصبحت يشار إليها بالبنان حتى ذاع صيتها بين الأوساط الرفيعة

فأجبت لوسى خالتها لهذا السبب لأنها كانت تعجب بالمعاطف والأردية التى كانت تصنعها أناملها الفتانة وذوقها الرهيف !

ومأساة هذه القصة التى أحاول أن أسردها عليك الآن قد حدثت لا لسبب غير أحد هذه المعاطف التى حاكتها سوفى وذهبت ضريبتها ! »

قال هذا وضرب بيده البيضاء الجميلة على المائدة ثم استأنف قائلاً : « حدث أن لوسى بلغت العاشرة من عمرها وتريد أمها أن تقيم لها ليلة راقصة احتفالاً بعيد ميلادها السعيد تدعو إليها أترابها وأكابر القوم من محبيها وصفوة القوم من الهيئة الأرستقراطية فى البلاد !

وصل إلى زميلتى سوفى ونحن فى إحدى طوفاتنا فى الأقاليم رسالة من لوسى ترجوها فيها أن تعمل لها رداء جميلاً تكريماً لها فى هذه المناسبة السعيدة وأنها تريد أن تكون به محل أنظار المدعوين جميعاً !

ابتسمت « سوفى » ابتسامة الرضى والغبطة لهذه اللهجة البريئة وهذه اللغة الساذجة . وأشهد أنى لم أرها أسعد حالاً وأغبط نفساً منها فى هذه الفترة التى تلت قراءة هذه الرسالة . هزتها حميا الطرب فراحت فى كل مكان تغنى وتشدو !

وصل إلينا هذا الخطاب بينما كنا نطوف الطوفة الشتوية فى الأقاليم وكان الطقس قارس البرودة فأصيبت سوفى بحمى شديدة تحولت بعد قليل إلى نزلة شعبية حادة، ولولا العناية الإلهية لكانت قد قضت . كانت ضعيفة جداً فى الفترة التى تلت هذه الحمى فلم تقو على العمل ولكنها كافحت وصارعت كيلا توقف العمل فى الفرقة ولكى تستطيع أن تنجز الرداء الحبيب قبل ليلة العيد ... !

كنت أراها دائمة التفكير فى هذا الرداء وكيف يكون وتفصيله ، وبعد أيام قلائل نادتنى على حين فجأة وقالت لى بنبرات مرتعدة « زميلى برانكر لقد انتهيت من إعداده فى فكرى، ترى ماذا يكون شكله فى هذه الليلة الراقصة . . . ! سأختار له لوناً أبيض لازينة فيه ولارسوم من أى نوع. تصور فيه لوسى إذا بين أترابها اللاتى يرتدين الأثواب المزركشة والمعاطف المزينة بمختلف الألوان والأشكال !

نعم سأختار له لوناً بسيطاً جداً وهو اللون الأبيض رمز الطهر والعفاف فى ليلة الزفاف . . . !

سأحمل المدعوين والمدعوات على الإعجاب به . . . !

استحسنت فكرة صوفى واصطحبتها إلى السوق لنبتاع القماش ولكن ما كدنا نصل إلى محل أزياء حتى أغمى عليها لشدة ضعفها، والواقع أنها كانت تتحامل على نفسها للقيام بالواجب نحو الطفلة المحبوبة!

وفى خلال يومين من هذا الحادث تحققت خطورة مرضها وأن حالتها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. والحقيقة أنها كانت تعيش على قوة أعصابها وشدة عزيمتها فحسب ، إذ كان كل إرادتها منحصراً فى إتمام هذا الرداء ليتسنى للوسى ارتداءه فى الحفلة الراقصة لعيد ميلادها !

انتهينا من رحلتنا فى الفرقة ووصلنا لندن فى يوم عيد الميلاد. وكنت شديد القلق على حياة صوفى إذ كنت أراها ترد حياض المنية على رود ومهل ، فوجهها شاحب اللون وعيناها جاحظتان، ومع ذلك كانت يدها المرتعشة تعمل فى الثوب بسرعة فائقة ونفس راضية مستبشرة وعزيمة قوية لا تعرف الكلل

أقلتنا العربة إلى أحد الفنادق وأرادت صوفى النزول منها فلم تقو على حمل نفسها فأخذتها بين ذراعى وأنا واجف القلب مستطار اللب على حياتها وصعدت بها السلم ثم وضعتها على السرير فى حالة إغماء شديد ، وبعد دقائق معدودة رأيتها فى شبه غيبوبة وأخذت تهذى وتتفوه بألفاظ لم أتبين منها إلا اسم أوين ترى ولوسى . وبعد ساعتين من هذه الحمى الخطيرة استفاقت وثابت إلى رشدها ثم رأيتها تقوم فجأة وفى قوة عجيبة وأخذت تبحث عن الرداء بذعر وخوف فناولتها إياه إذ كنت أحمله بين يدى ثم شرعت فى إتمامه وهى مرتعدة المفاصل مرتجفة الأعصاب ... كان الليل قد أرخى سدوله والثلج يتساقط مدراراً على النوافذ والرياح العاصفة تزفر بشدة فى الخارج »

وهنا وقف برانكر وأخذ الرداء بين يديه برقة فائقة وأخذ يمثل لنا هذه المأساة أمام أعيننا !

قال : « انتهت صوفى من صنع الرداء فناولتنى إياه وقد انفرج ثغرها الجميل عن ابتسامة تعبر عن الرضاء والغبطة! وأوصتنى أن أسلمه لها فى يدها وأن أراها وهى مرتدية به بين أترابها وأن أتعرف مبلغ استحسانها إياه وفخرها به بين القوم ! ثم رأيتها تأخذه منى فجأة وأخذت تقبله قبلات حارة وهى دامعة العين لاهثة الصدر حتى أشفقت عليها أن تزفر الزفرة الأخيرة وهى على هذا الحال — وبعد ما هدأت قليلاً أخذتنى منها فى رفق وقد أخذتنى رعدة شديدة من جلال الموقف ! ...

خرجت من البيت فى الساعة السابعة إلا عشر دقائق والرداء بين ذراعى وأخذت أهيم على وجهى فى الطرقات

ركبت عربة لتصل بى فى أقصى سرعة إلى بيت لوسى حيث الحفلة ؛ ثم أعطيت السائق العنوان ورجوته أن يسرع بأقصى سرعته ...! وبعد نصف ساعة وجدت نفسى أمام البيت المنشود ثم نزلت من العربة والرداء بين يدى كطفل محموم وصعدت السلم وناديت: لوسى... لوسى... فوجدتها فى غرفة زينتها مرتدية ثوباً برتقالى اللون مفضض الحواشى وتضع على رأسها تاجاً من الزهور البيضاء الجميلة مما زاد فى حسنها ورواءها، وكانت تنظر لنفسها فى المرآة لكى تلقى آخر نظرة على زينتها وهندامها ... وعند ما رأتنى صاحت وقالت : هالو ... ! هالو ... ! آه وا أسفاه

لقد ظننت أن الخالة سوفى قد نسيتنى فلم تعد تتحفنى بهداياها الجميلة الممتازة وعلى أى حال لقد ابتعت رداء جميلاً من محل (زوكوس) فقلت فى تأثر عميق : «طفلتى العزيزة ... ها هو ذا الرداء الذى صنعته لك خالتك سوفى وهى تجهد نفسها لإتمامه لك فى يوم عيد ميلادك كما قلت لها فى رسالتك. وها هى ذى تبر بوعدها وتكلفنى حمله لك . ولقد حال المرض العضال بينك وبينها . وكم كانت تود أن تحمله لك بنفسها فى هذه المناسبة السعيدة ... !

ثم نظرت إلىّ فى غير اكتراث وتناولته منى فى غير احتفال وأخذت تفحصه بكلتا يديها ثم قالت : « ما هـذا الرداء الخالى من الألوان والزهور ... ! هذا زى عتيق لا يليق بى وأنا الفتاة الصغيرة التى تحب الألوان الزاهية المتلألئة ... ! قالت هذه الجملة ثم ألقته على مدى ذراعيها فى أقصى الغرفة ... !

كدت أخرج عن طورى فأصفع هذه الطفلة الجاحدة جزاء على سفاهتها ووقاحتها ، ولـكننى تذكرت فى الحال صديقى وأنها هى الذكرى الوحيدة التى نعتز بها منه ... !

ولكنى لم أتمالك نفسى وقلت لها : « ما أكفرك من طفلة غريرة ... ! إنك لو تعلمين كيف صنعت لك خالتك هذا الثوب ... ! إنك قتلت نفساً سامية . لقد ذابت وتحطمت لأجلك ... ! » فهزت رأسها الصغير استهزاء كالكبار تماماً وضغطت على الجرس لاستدعاء الوصيف لإخراجى من البيت. اندهشت ! اندهشت من هول هذا الموقف وتلعثم لسانى فلم يقو على الكلام ، ثم رأيت نفسى خارجاً من البيت أغمغم بكلمات اللعنة والغضب على الإنسان وجحوده ... !

كان الوقت ليلاً ولم يزل الثلج يتساقط فى كل مكان ، والبرد قارساً فأخذت أعدو فى كل مكان عدو المجنون به مس من الشيطان وقلبى مضطرب ... فوقفت فى ركن من الشارع وأنا حزين مكتئب النفس لا أقوى على حمل نفسى ... ! أأرجع إلى سوفى وأخبرها بهذا النكران أم أكذب عليها وأخفى الحقيقة ... !

سوفى حبيبتى – كيف أرجع إليك ؟ آه لا شك أنك منتظرة قدومى لأخبرك بفرح لوسى بالثوب

لقد رجوت من الله أن تموت سوفى وهى على هذا الحال من السعادة والأمل ... !

غنيت لها أسعد الأحلام فى آخر ساعاتها ... وبقيت أنا وحدى أتألم لخيبتها وفشلها ... ! لا شك أنها الآن تحلم برؤية لوسى وهى مرتدية الرداء وتفاخر به أترابها ومهنئيها ... !

أسكنكما الله يا سـوفى أنت وحبيبك الأول صديقى ترى — فسيح جناته ، وطيب الله ثراكما فى مثواكما الأخير ... !

لترقدا رقدة الخلود فى أمن وسلام !

محمود المرصفى

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشـاً

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين)